الجابري والمشكلة الأخلاقية
في التراث العربي الإسلامي

د. رباني الحاج/ جامعة معسكر

***

المولج[*]

- كانت القيم ولا زالت تمثل إشكالا حقيقيا يطرح نفسه باستمرار على جميع الثقافات والشعوب والمجتمعات على اختلاف إنتماءاتها الحضارية، فمنذ فجر التاريخ، أدركت المجتمعات البشرية أنه محكوم عليها بضرورة العيش المشترك القائم على قيم السلم والإستقرار والإحترام المتبادل، لذلك عملت على إرساء قواعد ومعايير قيمية ومبادىء أخلاقية، تدعم رغبتها في الحفاظ على النظام في ظل التعاون والتضامن والتكامل، وتعمل في الوقت ذاته على تقليص وإخفات قيم الصراع والخلاف التي تؤدي إلى الإنقسام وشق عصا الطاعة والولاء، وبث الفرقة.

[*]- Abstract :As far as the Arab Islamic civilization was described as civilization of poetry and sacred text, it can also be described as a civilization of strong and tyrant moral sense, since ethics is a fundamental problem in our consciousness, also it shapes our identity. This strong sense of morality in our personality has often played a decisive role in shaping our individual and collective consciousness; also it has prevented us from establishing a rational relationship with other values, such as the values of freedom, justice, truth and beauty. Nevertheless, it is so important to pose such questions: were all the values of our Arab-Islamic heritage so negative? It is true that there were no moral, rational and human values that deserve to be called, namely in the light of the rapid developments that humanity today knows in general and Arab Muslim societies in particular? On the other hand, has our Arab-Islamic heritage put the ethical problem as clearly and fully as we need it today? Can we talk about an Arab moral mind as Mohamed Abid AL- JABRI imagined taking in consideration the diversity of our heritage? Or ,on the other hand, the question of ethics was decided, and it is outside the circle of mental thinking, which led to the absence of an ethical philosophy in our heritage. This dilemma makes us today in a huge crisis of real values according to the context of human values, Such as freedom, rationality, justice, democracy, citizenship ethics of dialogue and communication, discussion, tolerance, mutual recognition and human rights.

الكلمات المفتاحية: التراث، الأخلاق، المشكلة الأخلاقية، التراث العربي الإسلام.

ظل مجال القيم، مجالا حساسا يكاد الإقتراب منه ينذر بإعلان ميلاد جديد للإنسانية، في بعدها الفردي والجماعي، فكثيرا ما يتغير الفرد سلوكيا، ويتغير المجتمع في عوائده ومظاهره، ومع ذلك نجد كل منهما يتشبث في وعيه الباطني بمنظومة قيم لم يصبح لها أي دور في الواقع الذي يحيا ويعيش فيه، من هنا ينشطر العالم في ذهنه إلى قسمين، عالم للقيم تضفى عليه كل صفات الطهر والإجلال والتقديس، وعالم للواقع المعاش تضفى عليه كل صفات الدنس والذم والقدح، مما يفرز إلى السطح المشكلة الأخلاقية بكل تعقيداتها، وبكل أبعادها الدينية والثقافية والإجتماعية والتاريخية، فالتفكير في المشكلة الأخلاقية هو تفكير في أسس المشكلة الإنسانية في أبعادها المختلفة، تفكير في كيفية النظر التي لا تنفصل عن طريقة العمل، مما يجعلها مشكلة أكثر تركيبا، وهو ما أدركه الجابري وأشار إليه مرارا، في دراساته المتعلقة بالسياسة والأخلاق، ليبين صعوبة إقتحام مجال القيم والجرأة على البحث فيه، والكشف عن مصادره وروافده وأبعاده الظاهرة والكامنة.

إن الإشكالية التي تحرك فكر الجابري في مجال الأخلاق هي إشكالية فلسفية بالدرجة الأولى، وهو ما نستشفه من عنوان كتابه الضخم الذي خصصه للموضوع، إنها إشكالية العقل الأخلاقي العربي، أو كيف فكرت الثقافة العربية في القيم الأخلاقية؟ ماهي مصادر وروافد القيم الأخلاقية في هذه الثقافة؟ هل تغيرت منظومة القيم في الثقافة العربية أم ظلت على حالها إلى يومنا هذا؟ ما الذي جعل التجديد في منظومة القيم الأخلاقية في الثقافة العربية أمرا مؤجلا باستمرار؟ هل يتعلق الأمر بعجز عقلي وجرأة فكرية أم بتراث قيمي أخلاقي فرض نفسه على الضمير الفردي والجمعي مما جعله أقوى من أية رغبة منفردة في التجديد والتغيير؟

يتطرق الجابري في مقدمته لكتاب "العقل الأخلاقي العربي" إلى محاولة تشخيص الوضع الراهن لمسألة الأخلاق والقيم في الثقافة العربية قائلا " أما في مجال الأخلاق ونظام القيم فقد وجدنا أنفسنا أمام ضرورة القيام بمهمة مزدوجة: القيام بدور المؤرخ الذي عليه أن يبحث عن المصادر أولا ثم نقدها وتقويمها وتصنيفها وبناء التاريخ على أساسها من جهة، والقيام بالتحليل والمقارنة والنقد والقراءة" من جهة أخرى".[1]

[1] - محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي (دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2001، ص18.

يشير الجابري هنا، إلى مهمته المزدوجة إزاء المشكلة الأخلاقية في التراث العربي الإسلامي، فهو من جهة مضطر للعب دور المؤرخ، ومن جهة أخرى لعب دور الفيلسوف الذي يعمل على نقد وتحليل وقراءة المصادر والأصول من منظور عقلاني وموضوعي.

يجد الجابري نفسه مغامرا في إقتحام مجال لم يكن مسبوقا إليه في نظره، إذ يقول معبرا عن ذلك " يمكن القول، انطلاقا من حالة " الوضع الراهن" في مجال دراسة الفكر الأخلاقي في تراثنا العربي الإسلامي-كما رصدنا في المقدمة-إن عملنا في هذا الكتاب سيكون أشبه ما يكون بعمل من يقوم بمغامرة في قارة سيكون عليه أن يستكشفها ويصفها، ويدرس أشياءها ليرتبها ويربطها بأصولها وفصولها، قارة جمعت في جوفها وعلى ساحاتها موروثا من القيم والأخلاق ينتمي إلى **خمس ثقافات**.[1]

إنها إشارة واضحة إلى تدشين القول الفلسفي في مجال القيم في الفكر العربي المعاصر من طرف الجابري، يتجاوز فيه الوضع السائد أو الراهن في الثقافة العربية الإسلامية، ومع ذلك فالأمر لا يقف عند حدود النظر الفلسفي ولا يرتبط بالجانب العملي للأخلاق الإسلامية فحسب، بل يرى الجابري أن إهتمامه ينصب على ما يسميه " نظم القيم في الثقافة العربية الإسلامية" وهو ما يعني به " العقل الأخلاقي العربي"[2]

إن التركيز على النظم، يعني الإهتمام بالقيم كما تم تصورها وتمثلها والتنظير لها، فالجابري كعادته، يهتم بتحديد موضوع بحثه بشكل كبير، وهو يؤكد باستمرار إهتمامه بالثقافة العالمة، أي الثقافة كما تم تأصيلها وتقعيدها وتدوينها، ثقافة النص المدون والمكتوب وليس بالضرورة ثقافة الممارسة والمعيش اليومي، فالأمر هنا يتعلق بتصويب الوعي لا بتوجيه السلوك، أي العمل على فهم القيم في ذاتها وكيف يتم تبريرها والدفاع عنها والإعتقاد في صحتها من طرف الجماعة التي تتبناها أو تنتمي إليها أو تقع تحت تأثيرها بوعي أو بدون وعي منها.

نشير هنا إلى نقطة أساسية تتعلق بالرؤية التي يتبناها الجابري في دراسته للمشكلة الأخلاقية من خلال نظم القيم، تلك النقطة المتعلقة بالحفاظ على الصلة القديمة بين الأخلاق والسياسة، هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فهو يؤكد على تعدد النظم

[1] -محمد عابد الجابري، المصدر السابق، ص 19.

[2] - المصدر نفسه، ص 21.

داخل الثقافة العربية الإسلامية، بتعدد مصادر الموروث الثقافي العربي الإسلامي، ومع ذلك فهي تنتهي إلى نظام قيم موحد يتيح لنا إمكانية الحديث عن عقل أخلاقي عربي. أما من حيث المنهج، فيبقى الجابري متشبثا بالمنهج التكويني التاريخي والمنهج البنيوي، وهو ما ينتهي به هنا في مجال القيم إلى موروثات خالصة، وموروثات دخيلة وافدة. إن البحث في المصادر يقود الجابري إلى البحث في الألفاظ والكلمات المتداولة التي تشير إلى حقل القيم بصفة عامة، والقيم الأخلاقية بصفة خاصة.

فيعمل على تحديد كلمات، أدب، أخلاق، قيم، نظام القيم، ليكشف مدى إرتباطها بالموروثات التي تداولت وتفاعلت على ساحة مجال القيم في الثقافة العربية الإسلامية منذ البداية، يقول الجابري: في اللغة العربية كلمتان يعبر بهما عن الأوصاف التي يوصف بها السلوك البشري: خلق (والجمع أخلاق)، وأدب (والجمع آداب). والكلمتان غير مترادفتين مع أن الواحدة منهما قد تنوب الواحدة منهما عن الأخرى في كثير من الأحيان. لكن يبقى مع ذلك أن الفرق بينهما قد يتسع إلى درجة يكون معها من غير الممكن وضع الواحدة منهما، أو أحد مشتقاتها محل الأخرى.[1]

يفتح الجابري بهذه الإلتفاتة مجال القيم على فضاء أوسع، بحيث يعطي لهذا الإشتقاق اللغوي بعدا فكريا يوجه فلسفته الأخلاقية في الفضاء العربي الإسلامي، " فكلمة –أخلاق- قد تستعمل مفردا أو جمعا للدلالة على صفة أو صفات في الشخص، محمودة أو مذمومة، ولكنها لا تستعمل للدلالة على مجموع قواعد السلوك الذي يتمظهر في تلك الصفات، القواعد التي تكون موضوع تدريب وتعليم، إلا بإضافة كلمة تفيد ذلك (علم الأخلاق، فن الأخلاق، صناعة الأخلاق) وهو ما يتضح من خلال قولنا: أدب السلوك- في اصطلاح المتصوفة ولايقال- أخلاق- السلوك، كما يقال- اداب الصلاة- في اصطلاح الفقهاء ولايقال – أخلاق الصلاة."[2]

مثلما حاول الجابري أن ينطلق من الإشتغال على كلمتي أخلاق واداب في المجال التداولي العربي الإسلامي، نجد المجال التداولي الغربي يعمل على التمييز بين ما يسميه أخلاقا من جهة وما يسميه واجبية من جهة أخرى، يقول ريكور (1913 - 2005)" لاشيء في علم الإشتقاق أو في تاريخ إستعمال هاتين المفردتين يفرضه. الأولى تأتي من اليونانية والأخرى من اللاتينية، وكلتاهما تعيداننا إلى الفكرة الحدسية

[1] - محمد عابد الجابري، المصدر السابق، ص 31.

[2] - محمد عابد الجابري، المصدر نفسه، ص ص 41-42.

للعادات والشيم والتقاليد بالإضافة إلى الدلالة التبعية المزدوجة التي نحاول أن نفككها إلى ما يعتبر جيدا وصالحا وما يفرض نفسه كواجب إلزامي. إني إذا، اصطلاحا، أحتفظ بالتعبير أخلاق من أجل التطلع إلى حياة منجزة، والواجبية من أجل تمفصل هذا التطلع داخل معايير تتسم في ان معا بادعائها الكلية الكونية (صلاحها لجميع البشر)، واحتواءها قيدا وإكراها."[1]

ومع ذلك، فكلمة أخلاق وكلمة واجب يراد التمييز بينهما اليوم، بل تبدوا متناقضتين أحيانا، لكن الكلمتين تعودان من الناحية الإشتقاقية étymologiquement. والتاريخية-Historiquement، إلى الحقل نفسه.[2]

وعلى الرغم من محاولة التمييز هذه، فسواء تكلمنا عما هو أخلاقي (معنوي، عقلي) باعتباره ما يتعلق إما بالآداب، إما بالقواعد السلوكية المسلم بها في عصر، في مجتمع معين. أو باعتباره ما يتعلق بالدرس الفلسفي للخير والشر.

أو تكلمنا عن (الأخلاق، الأخلاقية) باعتبارها مجموعة القواعد السلوكية المعتبرة صالحة بلا شرط. فإن المعنى الذي تتضمنه الكلمة دوما هو أن النظرية المقصودة ترمي إلى عواقب معيارية وقد لا تقال على علم موضوعي ووصفي للآداب أو حتى للأحكام الأخلاقية."[3]

وهكذا يكون الأمر نفسه في المجال التداولي العربي الإسلامي، سواء تكلمنا عن آداب أو عن أخلاق فنحن ندور في سياق ماهو معياري، إلا أن الجابري، يرى أن كل من كلمة "أخلاق" وكلمة"آداب" تعكس تأثرا واضحا بمنظومة قيم محددة في صراع ضد منظومة قيم أخرى، ذلك أن الساحة العربية الإسلامية كانت مجالا مفتوحا للصراع بين قيم يونانية وأخرى فارسية متناقضتين وهو ما انعكس على منظومتنا القيمية العربية الإسلامية التي تداولت عليها موروثات قيمية من ثقافات مختلفة بين أصيلة ووافدة.

- **أصل الأزمة: الخلافة وصراع القيم:**

عرفت الثقافة العربية الإسلامية تشنجا وتوترا حادا في نظام القيم منذ أن وجدت نفسها بحكم الظروف التاريخية العسيرة التي مرت بها، تحت وطأت موروثات ثقافية

[1] بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة جورج زيناتي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2005، ص343.

[2] - M ichel Blay: Dictionnaire Des concepts philosophiques, p 535.

[3] - أندري لالاند، موسوعة الفلسفة، المجلد 2، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001، ص ص837-838.

أخرى محملة بالقيم السياسية والدينية والأخلاقية المكونة لها، مما جعل التفكير في مسألة القيم استجابة لردة فعل على فعل صادر عن ذات غريبة عن إنتماءنا الحضاري، وهو ما أخر الكلام في القيم والبحث في مضامينها ودلالاتها وفي الأسس التي تقوم عليها وتنطلق منها والغايات التي تهدف إليها، وبتعبير آخر، إن التفكير في القيم، قيم الحرية والعدالة والسعادة والخير، كان وليدا لأزمة إجتماعية وسياسية ودينية أصابت الوجدان الفردي والضمير الجمعي في العمق، فأدت إلى حصول إنقلاب في القيم إذ أصبحت الدنيا غاية والدين وسيلة للإستحواد عليها.

لذلك يقول الجابري،" ومع ذلك تأبى الطبيعة البشرية إلا أن تفرض نفسها. فلم يمر إلا نحو من عشرين سنة حتى وقعت " دولة المدينة في أزمة كان أبرز مظاهرها انتكاسة خطيرة على صعيد القيم التي بشرت بها الدعوة المحمدية وأقامت عليها دولتها".[1]

فالأزمة السياسية التي عاشها المجتمع العربي الإسلامي لم تكن مجرد أزمة في نظام الحكم أو في أمر الخلافة، بل تغلغلت في كل نواحي المجتمع، فزلزلت نظام القيم بكامله، عندما وضعت قيمة الإيمان بما لها من دور مركزي وتأسيسي للمجتمع الإسلامي محل شك وامتحان، على خلفية دوافع سياسية ودنيوية واضحة للعيان، إذ تم استدعاء النصوص القرآنية والنبوية والعمل على توظيفها لخدمة القضية المنخرط فيها، قام بهذا جميع المسلمين على اختلاف مشاربهم، فوجدوا أنفسهم منخرطين في الأزمة بإرادتهم أو غضبا عنهم، فكما يقال من لم يشتغل بالسياسة إشتغلت به، فلا مجال هنا بالذات في عالم القيم للحياد الكامل، فكل موقف يجري تأويله مع أو ضد.

إن هذا الجو المحموم لم يكتفي فيه الخصوم باستدعاء التراث العربي الإسلامي الخالص، بل لعب فيه الموروث الأجنبي دورا هاما، سواء كان موروثا فارسيا أو يونانيا أو صوفيا غنوصيا، فالقيم الأخلاقية في الثقافة العربية الإسلامية لم تكن موضوع معرفة ونظر بل كانت موضع صراع عنيف واقتتال فظيع على مصير دنيوي متلبس بمصير أخروي وتداخلت فيه مسألة السلطان بمسألة الإيمان، واختلطت فيه عوامل القبيلة والغنيمة بعوامل العقيدة والشريعة أو الإيديولوجيا كما نقول اليوم.

[1] - محمد عابد الجابري، المصدر السابق، ص 61.

يقوم الجابري بمسح واسع لمجال القيم في الثقافة العربية، فيتجاوز حدود الخطاب الفلسفي ليبحث عن نظم القيم في جوانب أخرى من موروثنا الثقافي، كالحكايات والروايات والقصص والأمثال والحكم وغيرها من الآداب المختلفة، المروية والمحكية، لكن المدونة والمكتوبة في المتون والمؤلفات المختلفة والتي تكرس نظاما معينا للقيم وتعمل على تحديد القيمة المركزية فيه وما يدور في فلكها من قيم تابعة وداعمة لها.

يعمل الجابري جاهدا من أجل الكشف عن بنية وتاريخية ما يسميه "العقل الأخلاقي العربي" إنطلاقا من تحليله " لنظم القيم " التي عرفتها المجتمعات العربية الإسلامية، سواء كانت تلك النظم ناتجة عن تراث عربي أو إسلامي أصيلين، أو جاءت من بيئات ثقافية وحضارية أخرى وتغلغلت في منظومتنا القيمية بمختلف أبعادها، الدينية والسياسية والإجتماعية والأخلاقية، ولعبت دورا مهما في توجيه فكرنا ووعينا الفردي والجماعي، وفي كثير من الأحيان دون وعي منا أو انتباه إلى مصدرها الأصلي وتشكلها التاريخي، ووظيفتها الأساسية.

إن الإنفتاح على تراثنا الثقافي والإجتماعي والسياسي، سيكشف لنا عن مصادر تراثنا القيمي والأخلاقي وكيف تم إنتقالها إلى سياقنا التاريخي، لكن هذا لن يتحقق لنا ما لم نوسع مجال البحث ونغير زاوية النظر، فنخرج من منطق السائد والرسمي والمعروف والمتداول، الذي يخدم أغراضا معينة، تصب كلها في نطاق الحفاظ على قيم السلطان ومنظومة التسلط التي ترفض تسرب قيم الحرية والعقلانية والعدالة والديمقراطية.

فكل قوة وكل تسلط مهما كانت طبيعتها، لابد لها من حجج ومبررات، ودعائم تستند إليها في عالم القيم، حتى تصبح تلك القوة مهيمنة لا على أجساد الناس فحسب، بل تصبح مهيمنة على عقولهم وطريقة رؤيتهم للعالم الذي يعيشون فيه، فيؤدي ذلك إلى انسداد أفقهم، بحيث تكون كل قيمة من القيم خارج هذا الإطار، غريبة عنهم، تثير في نفوسهم الشك والخوف والريبة، فيشعرون أنهم أحرار في قيودهم ومقيدون في حريتهم. لهذا، يعتبر الموقف من القيم، مسألة حاسمة في حياتنا الإنسانية، إذ لا يمكننا أن نتصور معنى لإنسانيتنا خارج عالم القيم، بل يمكن القول أن الإنسان كإنسان ليس إلا قيمة، أكثر من ذلك حاول الفكر الفلسفي الأخلاقي الحديث والمعاصر أنسنة وعلمنة المشكلة الأخلاقية، ليجعل من الإنسان كائنا أخلاقيا، يتربع على عرش سلم القيم، فالحرية التي تم الإرتفاع بها في عالمنا المعاصر إلى مرتبة التقديس، هي في آخر المطاف قيمة أخلاقية بها تتحدد كينونة وقيمة الإنسان في

مجال الخاص، كما في المجال العام، ومع هذا، فإن الإهتمام المتزايد بمشكلة القيم في الفترة المعاصرة، لا يعني بأية حال من الأحوال، أن الإنسانية لم تهتم بهذه المسألة في ماضيها القريب والبعيد، مهما تنوعت واختلفت انتماءاتها الحضارية والثقافية.

- **الجابري: القيم الأساسية في الثقافة العربية ومصادرها:**
- **أخلاق الطاعة:**

ينطلق الجابري في تحليله للعقل الأخلاقي العربي من تسرب ودخول الموروث الأخلاقي الفارسي إلى الساحة الثقافية والسياسية العربية، وبعد مناقشته المستفيضة للنصوص التي ساهمت في غرس قيم هذا الموروث في مجالنا القيمي، يجد أن القيمة المركزية في الموروث الفارسي هي قيمة **الطاعة**، وهي قيمة مصدرها "كسرى" الذي يخدمه الكل ولا يخدم هو أحدا، والذي يجعل نفسه – عند الحاجة – وسيطا بين الله والناس. أما القيم الأخرى فهي تندرج نزولا من أقرب الناس إليه (الوزير والكاتب، أو المريد والتابع إلخ) إلى من يعبر عنه في هذا النظام من القيم ب "سفلة العامة " والغالب ما تأتي "النساء" في أسفل هذه السفلة...إنها "أخلاق الطاعة" التي لا يكون لها معنى إلا إذا تعلق الأمر **بطاعة الجماعة للواحد الفرد.** أما طاعة فرد لفرد، أو طاعة فرد لجماعة فليس مما يقبله نظام القيم الكسروي" [1]

يكرس هذا النظام من القيم، قيم الخضوع والطاعة المطلقة للحاكم في صورة كسرى، لا يختلف الأمر في نظر الجابري، عندما يتعلق ذلك بسياقنا العربي الإسلامي، فلا معنى لقيم الفردانية والإستقلالية والعقلانية، والحرية والمساواة، لأن سلم القيم مؤسس بشكل عمودي، يتجه من الأعلى إلى الأسفل، مما يؤدي إلى تكريس نظام سلطوي يستمد قيمته من طاعة المحكومين اللامشروطة، وهو ما يعني غياب فكرة المبادلة والإعتراف المتبادل في هذا السياق.

إن نظام القيم الكسروي المتمحور حول الطاعة، تنعدم فيه مفاهيم الفرد بل حتى مفهوم الإنسان حسب ما ينتهي إليه الجابري، فالفرد البشري ليس قيمة ولا قيمة له، والفرد الوحيد الذي يمكن الحديث عنه بإعتباره فردا هو كسرى، وهو حاضر في كل شيء يزاحم حضوره في وجدان الفرس حضور الله. وهكذا فكما أن الطاعة تجمع بين الله وكسرى فإن الثورة في السياسة تستلزم الثورة في الدين.

[1] - محمد عابد الجابري، المصدر السابق، ص249.

يتولد عن هذا إنشطار القيم إلى واحدة من ثلاث: أخلاق السلطان تقوم على التفرد والتعالي، أخلاق الخاصة وتقوم على الخدمة والحذر، وأخلاق العامة تقوم على الطاعة والصبر".[1]

- **أخلاق السعادة:**

إن البحث " التاريخي الموضوعي يوضح بأن الأخلاق الفلسفية الموضوعة وضعا واعيا تختلف عن نظم الأخلاق السابقة على ظهور الفكر الفلسفي بأنها تدعي وحدها أنها القادرة والصالحة لبني الإنسان، وأن أشكال الأهداف الأخلاقية السابقة عليها (أي الفلسفة) لا يمكن أن نراها في برامج التربية التي كانت سائدة في القرن الخامس ق. م. ومن هذه الأهداف-القدرة على اتخاذ السلوك الصائب في الحياة العملية. لذا فالإنسان الذي يعي ذاته وما حوله هو القادر في نهاية الأمر على الوصول إلى أعلى القيم، منظورا إليها من جهة اليقظة والإستعداد اللذين يستطيع الإنسان بهما مجابهة الظروف المحيطة والمؤثرة، من أجل الوصول إلى مفهوم أخلاقي آخر هو السعادة، وفي الحقيقة أن الحركة السقراطية أسبغت عليها معنى جديدا وحولتها إلى طريق جديد جاعلة منها القيمة الوحيدة والمركزية التي تدور وتنطلق منها نظرية الأخلاق في الفكر اليوناني".[2]

إن التأسيس الفلسفي للنظرية الأخلاقية على يد اليونانيين، إرتبط بالنزول بالفلسفة من السماء إلى الأرض على يد سقراط الذي رسخ ذلك بمقولته الشهيرة" اعرف نفسك بنفسك" حيث كانت عبارة عن كوجيتو مدشن لأنسنة وأخلقة الفكر الفلسفي، والإنتقال به من الكوسموس أي التفكير في الكون الطبيعي إلى الأنطولوجيا بمعنى التفكير إنطلاقا من مفهوم الإنسان وما يرتبط به ويدور حوله من مفاهيم أخلاقية. من أهم القيم التي طرحتها الفلسفة الأخلاقية اليونانية، قيمة السعادة، ماهيتها، مفهومها، طبيعتها، أنواعها، طرق الوصول إليها؟

نظرا لإهتمام الموروث الفلسفي اليوناني، بمسألة السعادة وطرحها بشكل مستفيض للبحث، منذ السوفسطائيين الذين قالوا بأن الإنسان هو مقياس الأشياء، وصولا إلى سقراط وأفلاطون وأرسطو ومن جاء بعدهم من الرواقيين والأبيقوريين، ركز الجابري، على علاقة هذا الموروث بالموروث العربي الإسلامي، متقفيا الأثر الذي تركه

[1] - محمد عابد الجابري، المصدر السابق، ص 253.

[2] - محمد الجبر، الأخلاق في الفلسفة اليونانية، دار الينابيع، دمشق، ط 1، 2003، ص ص 39، 40.

على الساحة العربية الإسلامية واصفا الأخلاق في هذا (السياق اليوناني) بأنها أخلاق السعادة، باعتبارها أخلاقا محورها وموضوعها الأساسي هو الحياة الإنسانية، أي أفعال الإنسان الصادرة عن رغبته وإرادته.

يشخص الجابري أخلاق السعادة في اتجاهين رئيسيين يرى أن أحدهما كان أكثر حضورا من الآخر في مجال القيم عندنا، إتجاه يغلب عليه الطابع العلمي وآخر يغلب عليه الطابع الفلسفي النظري هذا الأخير الذي ارتبط بفلاسفة اليونان الكبار، سقراط وأفلاطون وأرسطو، بينما إرتبط الإتجاه الأول ب إبقراط وجالينوس.

يرى الجابري، أن الإتجاه الطبي في تصور السعادة" يبدو عليه في الظاهر أنه يكرس نوعا من الآلية والجبرية، فإنه في الحقيقة يجعل السعادة في المتناول، هنا في هذه الأرض وفي هذه الحياة، لأنها كالصحة البدنية تتوقف على الوقاية والعلاج ليس غير.

ويمكن القول، إنه كلما تقدمت وسائل الوقاية والعلاج زادت نسبة التمتع بالسعادة.

أما السعادة خارج هذه الحياة، فليس للطب ولا للعلم ما يقوله بشأنها لأنها تقع خارج ميدان التجربة والعقل مجتمعين، وبالتالي خارج اليقين العلمي. ومع ذلك يبقى ميدان " الرهان "مفتوحا: لتكن سيرة الإنسان محمودة، لأنه إذا كان الإنسان يؤمن بأن ثمة حياة بعد الموت فسيكون جزاؤه خيرا، وبالتالي لن يخاف من الموت بل سيبقى سعيدا إلى آخر لحظة من حياته، أما إذا لم يكن يؤمن بالحياة الأخرى فسيبقى على سعادته مادام حيا فلا يخاف الموت إذ في نظره – لا شيء بعده".[1]

يدافع الجابري، عن النزعة الطبية في الأخلاق تلك النزعة التي ينتسب إليها كل من (الرازي، ابن سنان، ابن الهيثم، الكندي وابن حزم)، إذ يلمس فيها روح الأمل والتفاؤل والإرتباط بنبض الحياة والإبتعاد عن التشاؤم وقطع الصلة بالحياة والخوف من المجهول والإغراق في المثل ومن ثم فهي نزعة ترى أننا مضطرون للعيش سعداء، فالسعادة أمر حتمي وطبيعي وهي ممكنة التحصيل هنا في هذا العالم.

هذا بالنسبة للإتجاه الطبي الذي يقوم على نظرة علاجية للأخلاق، والقائم على الإرتباط بين النفس والجسد، والربط بين الصحة النفسية والصحة الجسدية.

أما النزعة الفلسفية في الأخلاق، "فقد تعاملت مع " السعادة " على أنها سعادة الفيلسوف (الفارابي وابن باجة) جاعلة مما انتهى إليه أرسطو في كتابه " الأخلاق إلى

[1] - محمد عابد الجابري، المصدر السابق، ص 423.

نيقوماخوس" بداية لها: كانت " السعادة الخاصة بالفيلسوف" آخر ما تناوله أرسطو، أما الفارابي فقد اهتم ب " تحصيل السعادة " الخاصة بالفيلسوف لأنه هو الذي " **يكون أولا** " وينشىء المدينة الفاضلة ويضع قوانينها ويرتب طبقاتها إلخ مما يجعلنا وجها لوجه مع "أردشير"، أمام القيم الكسروية من جديد....يستخلص الجابري أن هذا الإتجاه (أفلاطون، أرسطو، الفارابي، ابن باجة)، ينظر إلى الإنسان من زاوية أن **كماله النوعي** يكون بكماله العقلي. وهذا الكمال يكون بالمعرفة الشاملة للكون، معرفة الأسباب والمسببات التي تحصل معها وبها **لذة عقلية لا تضاهى، وتلك هي السعادة.**[1]

يربط هذا الإتجاه ذو النزوع الفلسفي بين تحصيل السعادة وبين تحصيل المعارف العقلية، ومن ثم فهو يهتم بنوع من السعادة الفلسفية التي يترتب عنها الخلود والبقاء الأبدي، وليس السعادة الأرضية المباشرة والعابرة التي تنتهي فور حصولها، لكن الحق يقتضي الإشارة إلى ضرورة تمييز النزعات الفلسفية عن بعضها البعض في هذا السياق رغم أن الجابري يحاول الجمع بينهما ووضعها تحت إطار واحد وهو الربط بين السعادة والعقل، فأرسطو في كتابه" الأخلاق إلى نيقوماخوس "يقول" السعيد من نال من حسن السيرة وجميل الأفعال، وذلك أن السعادة تكاد تكون قد وصفت بأنها حسن سيرة وجميل أفعال"[2]

ومعنى ذلك أن السعادة ليست مرتبطة بعالم المعقولات فقط، بل هي مرتبطة بعالم الحياة والفعل عند أرسطو الذي انتقد أستاذه أفلاطون في هذا وتجاوزه بشكل واضح وعميق، وهو ما لا يمكننا أن نتغاضى عنه تحت أي مبرّر كان.

ومع هذا يخرج الجابري بانطباع سلبيّ عن العلاقة بين الموروث اليوناني والثقافة العربية، وهو ما نلاحظه من قوله" فعلا، لقد ساد المقتبس " الرديء" من الموروث اليوناني في ثقافتنا العربية. نقصد بذلك " بضاعة " النزعة التلفيقية التي ينتمي إليها كل من كتاب العامري " السعادة والإسعاد «وكتاب مسكويه " تهديب الأخلاق " الأول

[1] - محمد عابد الجابري، المصدر السابق، ص 424.

[2] - أرسطو، الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة إسحاق إبن حنين، تحقيق عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الجامعية، الكويت، ط1، 1979، ص 70.

مشهور كفاية والثاني أكثر منه شهرة وقد بقي إلى الآن يعتبر أهم كتاب في الأخلاق أنتجه الفكر العربي"[1]

الحقيقة، أننا نفهم أونتفهم اعتبار الجابري هذا الكتاب الذي ملأت شهرته الآفاق، وتصنيفه ضمن ما يراه رديئا، عندما نتصفحه فنجد عنوان فهرسه الأول يدور حول النفس فيصفها بأنها ليست جسما ولا جزءا من جسم، هذا الفصل هو ما يرفضه الجابري، نظرا لما يترتب عنه من نتائج غير مقبولة، فابن مسكويه في حديثه عن فضيلة النفس يقول "أما شوقها إلى أفعالها الخاصة بها، أعني العلوم والمعارف مع هروبها من أفعال الجسم الخاصة به، فهو فضيلتها، وبحسب طلب الإنسان لهذه الفضيلة وحرصه عليها يكون فضله. وهذا الفضل يتزايد بحسب عناية الإنسان بنفسه وانصرافه عن الأمور العائقة له عن هذا المعنى، بجهده وطاقته". [2]

ينطلق مسكويه في كتابه " تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف" من اعتبار الأشياء البدنية والحواس عائقا أمام الفضائل النفسية، وهو ما يفهم منه، اشتراط الفضيلة بالإنفصال عن الجسم، فالجسم عدو للنفس ومضاد لها، هذا الموقف يقف على النقيض من النزعة الطبية التي تنظر إلى الأخلاق أنها مسألة تتعلق بالصحة النفسيّة التي لا يمكن تحصيلها إلا في ظل تحقيق الصحة الجسمانية، هذه الأخيرة التي نرى أن الجابري يفضلها ويميل إليها، إذ يرفض النزوع المثالي الذي يتجه اتجاها ميتافيزيقيا تصبح فيه السعادة والقيم المرتبطة بها من حرية ومسؤولية وعدالة ومساواة مسائل أخروية، يتأجل النقاش فيها إلى عالم آخر أو لأجل عالم أخروي كما فعل علماء الكلام، وهو ما يؤسّس ويشرّع لأخلاق الفناء.

- **أخلاق الفناء:**

يربط الجابري، ما يسمّيه " أخلاق الفناء " بالموروث الصوفي في الثقافة العربية، هذه الأخلاق التي تجد أصولها " فيما قبل الإسلام: في **التصوّف الفارسي** من جهة، والتصوّف الهرمسي من جهة أخرى، أما ما يقابلها في المجتمع العربي الإسلامي فهي أزمة القيّم التي نجمت عن " الفتنة الكبرى ". تلك هي الأصول الرئيسيّة.

أمّا القيّم الأساسيّة التي في هذه الأخلاق فهي القيّم **الكسرويّة** (الطاعة)، كما تتشخص في علاقة الشيخ بالمريد من جهة، والتوكّل الذي يؤسّسه الخوف من الآخرة،

[1] - محمد عابد الجابري، المصدرالسابق، ص 422.

[2] - مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطوير الأعراق، تحقيق وشرح نواف الجرّاح، دار صاد، بيروت، ط1، 2006، ص ص 14، 15.

أي من الموت، وبالتالي ترك التدبير للشّأن الدّنيوي. أمّا القيمة المركزية هي **الفناء** عن أوصاف البشرية، وفي مقدّمتها " العبودية "، والإرتماء بالتالي في " بحبوحة " الحريّة. أمّا خطاب أخلاق الفناء هذه فيتميّز بظاهرة فريدة غريبة، وهي أنّ جميع " المقدّمات " أو المنطلقات في " الكلام الصّوفي " تنتهي في النهاية إلى عكسها. **وحقاً** إنّ " أخلاق الفناء " تنتهي إلى " فناء الأخلاق ".[1]

إنّ ما يلخص أخلاق الفناء، هو أنّها أخلاق تعطّل في الأخير كل استعداد للفعل ومن ثمّ كل قدرة على العمل، فهي أخلاق تنتهي في آخر المطاف إلى الجبريّة والتّوكل، فلا مجال للتفكير والتدبير والتغيير، كل شيء مسطر ونحن مجبرون على الطاعة والخضوع والإنصياع، فلا حرية فكر ولا حرية عمل أو فعل، لا مبادرة ولا ردّة فعل، سواء كان ذلك على المستوى الفردي أو الجماعي، إنه النزوع إلى موت الإنسان.

ومع ذلك، يجب أن نقر أنّ التصوف ليس كله دعوة إلى الفناء، بل في التصوّف دعوة إلى تهذيب النفس وترويضها وتزويدها بقيم العفة عن طريق حثها على الزهد في الكماليات وترغيبها في الضّروريّات وفي إلتزام العمل الصّالح فرديّا وجماعيّا، وبالتالي ليست قيّم هذا الموروث كلها دخيلة وغريبة ووافدة إلينا من نظم وثقافات أو حضارات، إذ في تراثنا الأصيل الكثير من القيم ذات الصلة بقيم التصوف الإيجابية، ناهيك عن أن التصوّف كقيم وسلوك ليس حكرا على ثقافة دون غيرها فهو دو طابع إنساني، يشمل الإنسانية جمعاء، بقدر ما تشمل النزعات الروحية جميع الثقافات والحضارات، لذلك من المتصوفة من رأى أن التصوف هو الإكتفاء بالحلال والإمتناع عن الحرام.

قد يساء إستعمال هذه القيّم، أو الخروج بها عن مجالها الحقيقي، فتترتب عنها نتائج سلبية، بل عكسية لمقصدها الحقيقي، لكن الأمر لا يتعلق بالقيم بحدّ ذاتها.

إنما يرتبط بمن يعمل على إخضاعها لمنطقه الخاصة الذي يؤدي إلى هدمها وإفراغها من مضمونها الحقيقي، فليس بالضرورة التصوّف يقوم على أخلاق الفناء، كما أن أخلاق الفناء ليست بالضرورة هي المتسبب في فناء الأخلاق، فقد تكون أخلاق البقاء القائمة على الصراع المادي هي الطريق الأقرب إلى فناء الأخلاق، وقد تكون أخلاق التصوف هي الحصن الأخير الذي تتمترس حوله القيم، فالأمير عبد القادر الجزائري

[1] - محمد عابد الجابري، المصدر السابق، ص 422.

الصوفي المقاوم" جاء دفاعه عن العرب وحضارتهم في معرض مقارنته بالآخر الذي هزمه عسكريا، وكان مصدوما به، بتسامحه وبجمهوريته وحضارته، أثناء أسره بفرنسا، ولكنها كانت صدمة إيجابية، فلم يهزم معرفيا ونفسيا، ولو أنّ حالة التصوّف التي عاشها تكشف لنا عن مأساته من قومه الذين خذلوه، فلم يعود للجهاد من معنى عنده سوى أنه جهاد النفس، وحرب الأعداء هو حرب الأهواء والشهوات، لقد أراد أن ينتصر على الآخر محبّة ومعرفة.[1] فأخلاق التصوف قد تكون سندا، في الإستمرار في المقاومة والبقاء، ولو بأساليب ووسائل مختلفة.

- **أخلاق المروءة:**

يرى الجابري أن المروءة هي القيمة المركزية في الموروث العربي الخالص، وهي موجودة منذ ما اصطلح على تسميته بالعصر الجاهلي والذي يغلب عليه طابع التراث الشفوي غير المكتوب، لكنها استمرت في العصور اللاّحقة كقيمة أساسية سواء كان ذلك في أدب الدنيا أو في أدب الدّين، بل هي قيمة إنسانية تتجاوز حدود المجال الديني، فهي تجري على نطاق أوسع وأشمل هو مجال الأخلاق.

بعدما يعرض الجابري، لمصادر ومراجع عالجت المروءة بصفتها قيمة أخلاقية أو إجتماعية أو دينية، يصل إلى القول " إنّ المروءة" قد بقيت تمثل في الفكر العربي، منذ العصر الأموي إلى اليوم، القيمة العليا التي لا تتحقق " المدينة الفاضلة العربية " بدونها؟ ومع ذلك يرى أن التساؤل عن حقيقة المروءة مازال مطروحا؟ [2]

المروءة هي قيمة مركزية في نظام قيم مدجّج بالقيم الأخرى، كالكرم والشرف والفتوة، ومع ذلك فهي خلق مركب تندرج تحته هذه القيم، لذلك فالمروءة ترتبط بالجهد والمشقة والمعاناة ولا تأتي بشكل تلقائي، بل هي ثمرة تشبّع أخلاقي وإجتماعي، من هنا يقول الجابري مستخلصا بعد كل ما قام به من تحليل "والمروءة تنتمي إلى هذا النوع من الأخلاق، أعني الإجتماعية، فهي إذن سلوك إجتماعي محمود يقوم على مراعاة التقيد بما يستحسنه النّاس وتجنب ما يستقبحونه. هذا يعني أنّ سلطة الجماعة هي المقررة في شأن" المروءة " وليس سلطة العقل وإن كان بعض مقوماتها مما يرجع إلى حكم العقل كالعفة والنزاهة..." [3]

---

[1] - بومدين بوزيد، التراث ومجتمعات المعرفة، الدار العربية للعلوم، منشورات الإختلاف، 2009بيروت، ط1، ص، ص 59-60.

[2] - محمد عابد الجابري، المصدر السابق، ص 510.

[3] - المصدر نفسه، ص 530.

إن الطابع الإجتماعي لقيم المروءة هو ما يجعلها غير قابلة أو من غير الممكن أن تكون غاية في ذاتها، إذ أنّ القيّم عندما تصبح موجهة من طرف الجماعة، ستكون على صلة مباشرة بالسلطة التي تحتاج إليها تلك الجماعة، فهي تنتقل من كونها غاية في ذاتها إلى كونها مبررا لإحراز مكانة معيّنة داخل المجتمع وهذا ما يراه الجابري ضعفا يتهددها، لكن إصراره على هذا التنزّه والتجرّد التام يجعله ولو عن غير قصد على خطوط التماس مع ما يسميه بأخلاق الفناء، إذ أنّ الإتصاف بالمروءة إذا كان لخدمة الجماعة والصالح العام، وحصل حوله الإتفاق، سيكون سببا في نهضتها وارتقاءها. ومع ذلك، يرى الجابري أن المروءة " تخص في الأصل مكانة شيخ القبيلة، فقد نظر إليها على أنّها مصدر السّلطة المعنوية التي تنوب عن سلطة الدولة في مجتمع اللادولة. إنها من هذه الناحية جماع خصال الأرستقراطية القبلية كما عرفها المجتمع العربي في الجاهليّة.

إنّ هذا الطابع الإجتماعي المحلّي للمروءة جعلها تبدو كفضيلة عربية محض.[1] فالمروءة في منظوره، تتناسب مع مجتمع القبيلة، مجتمع شيخ القبيلة لا مجتمع رئيس الدولة، لذلك كان حضورها في موروثنا العربي متوافقا مع حضور الأرستقراطية القبلية. بما يشير إلى شيء من عدم المراهنة عليها لإحداث نهضة عربية في مجتمعاتنا الحالية، مجتمعات الدولة التي أصبح فيها صوت القبيلة خافتا غير مسموع، ومع كل ذلك لم يخطأ الجابري التقدير عندما اختار " المروءة " كقيمة مركزية في الموروث العربي " الخالص"؟ بل "الخالد "كما يعتقد.

وهو ما يبرر إهتمام مفكروا عصر النهضة العرب بإحياء وبعث قيم المروءة، اعتقادا منهم، أن المروءة هي القيمة المركزية التي تلامس الوتر الحساس للإنسان العربي والمجتمعات العربية، بما في ذلك الجابري الذي يأمل أن يحل الفرد محل القبيلة، والإيديولوجيا محل العقيدة، والعمل المنتج محل الغنيمة، من أجل بناء مجتمع العقلانية والديمقراطية، ولقيم المروءة دور تلعبه في ذلك.

- **أخلاق المصلحة:**

يضع الجابري ما يسميه " أخلاق العمل الصالح " في جوهر الموروث الإسلامي الخالص الذي يدور في أساسه حول " القرآن" وينهل منه مباشرة في مجال الأخلاق،

[1] - محمد عابد الجابري، المصدر السابق، ص 531.

وإذا كان لكل دين قيمة مركزية هي " التقوى " أي " الإيمان بالله إيمانا حقيقيا "، فإن دين الإسلام يقيم التقوى على العمل الصالح ويربط بينهما ربطا قويا، صريحا ومباشرا، مما جعل الأخلاق الإسلامية هي أخلاق النظر الصالح في نظر الجابري.

لكن رغم هذا الإقرار بأصالة قيم المروءة والعمل الصالح في موروثنا إلا أن الجابري يتأسف لغياب الإهتمام بالأخلاق في سياقنا العربي الإسلامي على مستوى الدراسات والمؤلفات، مما أفسح المجال لدخول الموروث الفارسي والموروث اليوناني_ الهلينيستي إلى الساحة الثقافية العربية الإسلامية، فالإهتمام كان منصبا على فقه العبادات والمعاملات في صلته بالجوانب القانونية والتشريعية، ومعلوم أن تسرب قيم الموروثات الوافدة، كرس قيم الإستبداد والإتكالية والإنعزالية.

بعد جهد جهيد، يقر الجابري أنه وجد أو اكتشف أن عالما واحدا على الأقل كان قد سّد الفراغ الذي اشتكى منه، وهو العز بن عبد السّلام، الذي قدّم في نظره البديل الإسلامي الحقيقي بعد المحاولات التي قام بها كل من المحاسي والمارودي والغزالي والراغب الأصفهاني من أجل أسلمة الأخلاق اليونانية التي سيطرت عليها نظرية أفلاطون في تصنيف قوى النفس وبدرجة أقل نظرية أرسطو.

يقول الجابري " وفرادة " سلطان العلماء " العز بن عبد السّلام وأصالته قائمتان وبوضوح في أنه أحدث **قطيعة نهائية وجذريّة** مع هذه البنية اليونانية، وأخذ كبديل لها بنية إسلامية، تكونت داخل الفكر العربي الإسلامي. ومعلوم أنّها تتكون من ثلاثة عناصر: **الذات، الصّفات، الأفعال.**

فكيف يؤسّس العز بن عبد السّلام الأخلاق الإسلامية على هذه البنية؟" [1]

بعد تحليله وشرحه لهذه البنية التي تقوم على خلفية كلاميّة (علم الكلام)، الذات والصفات والأفعال، ينتهي الجابري إلى خلاصة قائلا " وبالجملة ينبغي التخلق بما يمكن ويجوز من **أسماء الله الحسنى:** انظر إلى أسمائه الحسنى وتخلق من كل إسم منها بمقتضاه على حسب الإمكان. وينبغي أن تقابل كل صفة من صفاته بما ينبغي من المعاملات...أما التّخلق بأفعال الله كما تحدث عنها القرآن فيمكن تلخيصه في

[1] - محمد عابد الجابري، المصدر السابق، ص 607.

الإحسان: "إلى عباد الله بمثل ما أنعم به عليك " كالإحسان لليتيم والسائل والمحروم ...".[1]

يبحث الجابري عن أخلاق إسلامية محضة، مصدرها القرآن، لا صلة لها بنظم القيم اليونانية والفارسية، فيجدها في مؤلفات العز بن عبد السّلام، ويعبر عن ذلك بقوله " تلك هي " أخلاق العمل الصالح "، أو أخلاق المصلحة الجديرة حقا بأن توصف بأنها إسلامية لكونها تعتمد القرآن أساسا، دون ما أي إنشغال، لا سلبا ولا إيجابا بأي موروث آخر. وإذا كان العز بن عبد السلام لم يعرض ل " السياسة "، فلأن القرآن لا يشرع للحكم والسلطان، وكل ما يمكن الإستناذ عليه في مجال " السياسة "، من المنظور القرآني، هو المبدأ العام في الأحكام والأخلاق في الإسلام: مبدأ المصلحة "[2].

مبدأ المصلحة هذا مرتبط ومستمد من أخلاق العمل الصالح المستنبطة من القرآن، وهو المبدأ نفسه الذي أسس عليه ابن تيمية ما يسمى بالسياسة الشرعية " فاجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: اللهم إليك أشكو جلد الفاجر، وعجز الثقة، فالواجب في كل ولاية، والأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة: قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضررا فيها: فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع، وإن كان فيه فجور، على الرجل الضعيف العاجز، وإن كان أمينا ".[3]

فالأخلاق والسياسة مرجعها ومآلها المصلحة، وهي مجال للرأي والإجتهاد ولا مجال فيها للحقيقة والإعتقاد، في نظر الجابري هذا هو الأصل في الإسلام، وهكذا فالسعادة التي هي القيمة المركزية في الموروث اليوناني "قد فقدت مضمونها الإنساني الواقعي لتصبح سعادة في عالم ما ورائي تتحقق بتخليص النفس من أغلال البدن والحياة الحسّية. أما بلوغ هذه "السعادة " فلم تعد الخلق الفاضل والفعل النّافع والجميل بل انحصرت في الإعتقاد في تصورات معينة تخصّ تكون العالم وهبوط النفس وانغماسها في سجن البدن. وبمعرفة هذا واعتقاده تتخلص من هذا السجن وتعود إلى "مجالها الأصلي" حيث السّعادة القصوى".[4]

---

[1] - المصدر نفسه، ص609.

[2] - محمد عابد الجابري، المصدر السابق، ص 615.

[3] - إبن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، موفم للنشر، الجزائر، ط2، 1994، ص 57.

[4] - محمد عابد الجابري، المصدر نفسه، ص 629.

ولهذا السبب، يرفض الجابري، البحث عن نظرية أخلاقية في ثقافتنا العربية الإسلامية، في حدود المجال الفلسفي الخالص، والإنفتاح على مجالات أخرى كالفقه والآداب والتصوّف وعلم الكلام، علنا نجد نظرية أخلاقية متحررة من نظام القيم الكسروية، أي قيّم الطاعة والولاء والخضوع للطغيان والإستبداد التي تدمج بين العقائد الدينية المرتبطة بالإيمان من جهة، وبين الأخلاق والسياسة المرتبطة بالعقل والمصلحة من جهة أخرى، لذلك يعنون خاتمة كتابه " العقل الأخلاقي العربي " بعنوان لافت هو " لم يدفنوا بعد أباهم أردشير"، ملك الفرس ورمز القيم الكسروية، أي أننا لم نزل تحت وطأت نظام القيم الفارسية المتمركز حول الآداب السّلطانية ومن ثم انتهى الأمر إلى صياغة مبدأ كلي يلغي المسألة السياسية تماما " مبدأ« من اشتدت وطأته وجبت طاعته» .[1] والنتيجة هي الفشل في تحقيق أي تغيير في مجال القيم سواء في الأخلاق أو في السياسة، وهو ما يجعل من قيم الديمقراطية (الفردانية، المشاركة، الحرية، المساواة) غائبة عن أفقنا الفكري القديم، سواء لدى المتكلمين أو الفقهاء أو الفلاسفة كالمعتزلة أو الأشاعرة أو الماوردي أو الفارابي أو غيرهم، ومع ذلك يرى الجابري أن " ماتردد في المرجعية الأولى للثقافة العربية الإسلامية، وأعني القرآن والسنة، من تنويه بالشورى والعدل وحث على العمل بهما يمكن أن يجد اليوم آذانا أخرى تجعل منهما، وبالتالي من الديمقراطية بمعناها المعاصر، قيمة القيم فتؤسس عليها فقها سياسيا جديدا يجعل الشورى ملزمة – وليس معلمة فقط – وينقل « العدل » من الآخرة إلى الدنيا ويحرره من قيود الطاعة للأمير ومن هاجس المماثلة بين نظام الطبيعة ونظام المجتمع ويقطع الصلة بين النظامين، باعتبار أن الطبيعة ميدان للحتمية وأن المجتمع ميدان للحرية ".[2]

- **الأخلاق والعلم في عالمنا المعاصر:**

يعد العلم الحديث أهم مكسب أحرزته الإنسانية في الفترة الحديثة والمعاصرة، نظرا لما قدمته التطورات العلمية من وسائل وأدوات ساهمت في تحقيق نمط عيش مريح وحياة جيدة مزودة بالرفاهية وكل ما يساعد على التطور والتفتح الذاتي، إلا أنّ العودة اللافتة للإنتباه لمسألة القيم والأخلاق، تجعلنا ندرك الخطر والخوف الذي أصبحت تلك التطورات العلمية مصدرا له، وهو خطر يهدد تلك القيم بشكل قوي،

[1] - محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي (محدّداته وتجلياته، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط6، 2007، ص 372،

[2] - محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2003، ص ص 79-80.

بل أفرز هذا التطور قيما جديدة ما كان لنا أن نفكر فيها من قبل، أي قبل حصول الثورة البيولوجية المعلوماتية والهندسة الوراثية وغيرها.

إن هذا " الإحراج الشديد الذي تتعرض له القيم الأخلاقية اليوم، جراء تقدم العلم في المجال البيولوجي والطبي هو الذي يقف عليه ما أسميناه – يقول الجابري – ب **عودة الأخلاق** وهي عودة تتمثل خاصة في ردود فعل تبلورت، بكيفية خاصة، في قيام ما أطلق عليه في السنوات الأخيرة إسم «البيو إيتيك» أي **أخلاقيات البيولوجيا** أو (علم الأحياء).[1]

هذا ما جعل مسألة القيم تطرح بشكل مغاير تماما، فنحن نعود من جديد إلى طرح أساس الأخلاق، في عالم المتحكم الرئيسي فيه هو العلم وليس العقل المجرد أو المعتقد الديني وحده.

من هنا يمكننا القول أن التطورات العلمية كانت سببا في إنزال المشكلة الأخلاقية من السماء إلى الأرض مرة أخرى، إذ السماء سماوات والأرض أراضين، فأصبحنا نتكلم عن مشكلة أخلاق طبية وأخلاق بيولوجية، وأخلاق عملية مرتبطة بمهن ومجالات محددة لها خصوصيتها التي تؤطرها وتميزها عن بعضها البعض، فلم تعد القيم غاية في ذاتها تنتمي إلى عالم مجرد بل هي مسألة إجرائية وتنظيمية فحسب، ينظر إليها حسب السياق الذي يُنظر إليها فيه، في ظل مجتمع يقدس النظام والإنتظام في إطار نسقه العام الذي أخشى ما يخشاه هو الإنفلات والدخول في حالة واللانظام.

يدرك الجابري، أنّ مسألة القيم عادت بقوة إلى الفكر الأوروبي المعاصر، وبالتبعية إلى الفكر العربي، إذ تتعالى أصوات الفلاسفة والمفكرين والعلماء وبعض الساسة لتطرح الناحية الخلقية القيمية فيما يستجدّ على السّاحة، سواء في ميدان العلم أو في ميدان السياسة والإجتماع والإقتصاد، " فبينما اتجه التفكير منذ مائة سنة عندما كان الناس يعيشون على مشارف القرن العشرين، إلى نقد الأخلاق والتركيز على نسبيتها والتأكيد على قدرة العلم على بيان أصلها وفصلها، فإننا اليوم، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين، نجد أنفسنا أمام الحاجة إلى « **العودة إلى الأخلاق** »، أمام ضرورة تأسيس« أخلاقية » جديدة تفرض سلطتها على العلم وتقدمه، ليس في مجال علم الأحياء والطب وتطبيقاتهما وحسب، بل وأيضا في مجال

[1] - محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر العربي المعاصر، المصدر السابق، ص 64.

العلوم الطبيعية الأخرى وتطبيقاتها المدمّرة (الأسلحة الذرية والكيماوية والبيولوجية...إلخ). فهل سيكون القرن الواحد والعشرون متميزا ب «دعوة الأخلاق» وبأي معنى؟ وعلى أي أساس؟[1]

إنّ الأخلاق تطرح اليوم كفن، كإتيقا، لتحسين العيش واستهداف الحياة الجيّدة.

لكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن، في هذا السياق، هل نحن كمجتمعات عربية، معنيون بالتطورات العلمية وما ترفعه من تحديات في عالم القيم، أم أن تفكيرنا في مجال القيم تحكمه منطلقات وإواليات أخرى، تأخذ في الحسبان وضعنا التاريخي وواقعنا الحضاري، إذ لازالت قيم العقلانية والديمقراطية والحرية والمساواة، وكل ما تفرضه فلسفة المواطنة وحقوق الإنسان، تبحث عن مكان لها في مجتمعاتنا، وثقافتنا رغم أننا جزأ لا يتجزأ من الإنسانية في لحظتها الراهنة؟

الخلاصـــة:

بعد أن صال وجال الجابري في متون موروثنا الأخلاقي، كاد أن يقرر أنّ هذا الموروث يخلو أو يكاد من نظر أصيل في الأخلاق، رغم احتواءه على قيم أصيلة أصالة تراثنا العربي الإسلامي، كقيم المروءة في التراث العربي، وقيم العمل الصالح في التراث الإسلامي، لكنها ظلت بعيدة أو مستبعدة من خطاباتنا ودراساتنا، وحلت محلها قيم الموروثات الوافدة، قيم الطاعة في الموروث الفارسي، قيم الفناء في الموروث الصوفي والغنوصي، وقيم السعادة في الموروث اليوناني، وحتى هذا الموروث الأخير تم تشويهه وتحويره بشكل حوله إلى شكل من أشكال القيم الكسروية، التي يشخصها أردشير والتي تتمركز حول **الطاعة**.

- يعتقد الجابري أن القول بخلو التراث العربي الإسلامي من الإهتمام بالمسألة الأخلاقية أمر غير صحيح مبني على مغالطة أساسية تتمثل في حصر مجال التفكير في نطاق الخطابات الفلسفية في صورة مسكوية "تهذيب الأخلاق "، لكن البحث خارج هذا يكشف ثراء وغنى هذا التراث في معالجته للمسألة الأخلاقية وموضوع القيم.

- يرى الجابري أنّ أسلمة الأخلاق اليونانية بهدف التوفيق أعطت محاولات تلفيقية (في صورة الغزالي مثلا).

[1] - محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر العربي المعاصر، المصدر نفسه، ص 66.

- يرى الجابري أنّ الأخلاق العربية الإسلامية، تقوم على قيم المروءة وأخلاق العمل الصالح وهي تتنافى مع قيم الطاعة والإستبداد والطغيان التي تقوم على الجمع بين طاعة الله وطاعة الحاكم وتشترط طاعة هذا بذاك.
- يرى الجابري أنّ الأخلاق الإسلامية تقوم على العقل والمصلحة، ولا ترتبط بحقيقة ولا سعادة مطلقة، فهي إنسانية وغايتها الإنسان.
- يرى الجابري أنّ تحقيق النهضة والتجديد في مجال القيم، يستلزم الكشف عن أصول قيم الطاعة والفناء، باعتبارها جذورا للإستبداد.
- يرى الجابري ضرورة العمل على تحرير الضمير الإسلامي من "خطيئة الفتنة الكبرى " التي تبرر الإستبداد والطغيان وترسخه في ذهن الفرد، وتلعب دور " الخطيئة الأصلية " التي تخلق الشعور بالخضوع والطاعة والإستسلام.